الفصل السادس عشر

«الخمسينيات» تعيد إنتاج نفسها

يوسف ندا ... وقد جلس فى أبهة ملكية مسترخيا على مقعد يستوحى روح الملكيات الغابرة – بجوار نافذة تطل على معالم أوروبا. أما "الفيلا" التى يقطنها، فتقع على قمة أحد التلال المشرفة على بحيرة "لوغانو"، والتى تتخذ مياهها المتهامة مسارا أفعوانيا ما بين منحدرات جبال "الألب" الغاصة بغابات ممتدة وكثيفة ... ولا يعكر صفو تلك الطبيعة البكر سوى بلدات قلائل تحتت على ضفاف البحيرة.

obeikandl.com

وكان مقر "ندا" يزخر بتذكارات من رحلاته حول أركان المعمورة الأربعة – ممثلا لجماعة "الإخوان المسلمين". فعلى طاولة هنا، وضعت مزهرية زجاجية زرقاء من باكستان ... وعلى أخرى هناك، وضعت شمعدانات فضية من شمال إفريقيا ... فيما زينت ثالثة آنية معدنية عجيبة على هيئة قرن "فول سودانى" – وكأنها تذكار أو شاهد على تخصصه العلمى ... إذ تخرج فى كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية. أما الأثاث، فكان توليفة مزجت ما بين الطرز الشرقية والغربية، وقد ازدانت الأرضيات بأبسطة وسجاد يدوى من آسيا الوسطى. إن "ندا" قد وهنت قواه الآن – إلا أنه لا يزال حيويا نشيطا مرتديا قميصا رمادى اللون ذا كبكات، ورابطة عنق زاهية، وسترة سوداء وبنطالا رماديا. أما عيناه ... فسوداوان، وأما عثنونته ... فمشذبة. وكان الرجل يبدو منهكا، إلا أنه قد اعتدل فى جلسته ليورد تعريفا حرص على إعطائه لنفسه:

"إذا قيل إننى مهندس ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى رجل أعمال ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى مصرفى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى رجل صناعة ... فهذا صحيح.

وإذ قيل إننى أعمل فى التطوير العقارى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى سياسى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى ناشط ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى ديمقراطى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى اشتراكى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى إسلامى ...فهذا صحيح.

obeikandl.com

أما إذا قيل إننى إرهابى أو أمول الإرهاب أو كانت لدى صلات بالإرهاب ... فهذا خطأ وخداع وتضليل ... وهذه أمور تتعارض مع إيمانى ودينى وكل ما أومن به".

تلك سيرة ذاتية مقتضبة يصعب الجدال بشأنها ... فالنشاط الإرهابى الذى دين "يوسف ندا" بممارسته، وقيام الولايات المتحدة بتوجيه أصابع الاتهام إليه ... كان وكأنما هو محاولة يائسة من قبلها للقيام بفعل ما – أى فعل ... وذلك فى أعقاب هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ .

وحقيقة الأمر، فإن التعاون المكثف بين المحققين الأمريكيين ونظرائهم السويسريين، واتهام "ندا" بتمويل الإرهاب كان اتهاماً تنقصه الأدلة ... إذ فشل أولئك المحققون فى طرحه على الرأى العام على نحو مقنع. أما "بنك التقوى"، فقد كان استثمارا مأساويا أشبه بالكارثة لأعضاء جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن الأرجح أنه لم يكن أداة سرية لتمويل أنشطة الإرهاب. إن عملاء البنك، أو "المستثمرين" كما أطلق عليهم، قد خولوا "ندا" فضاء رحبا وحرية فى توجيه "زكاواتهم" كيفما أراد. وبذا، فحين تدفقت الأموال على البنك خلال مفتتح نشاطه الذى اتسم بأرباح طائلة، كان "ندا" مخولا بتوجيه الزكاة إلى أى عمل خيرى أيا ما كان. هذا، ويمكن للمرء أن يتخيل أن جانبا من تلك الأموال قد ذهب إلى بعض الجماعات والتنظيمات المريبة القريبة من جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن أمرا كهذا لم يتم إثباته قط ... إذ لم يكن أى تحويل من تحويلاته البنكية موضع ريبة أو تشكك يكفى لتخويل المحققين حق مقاضاته، ناهيك عن إدانته.

إن مشاق سنوات طوال من الجهد الدءوب لم تضعف نشاط أى من "يوسف ندا"

أو "غالب همت"، بل لقد بعثت فيهما حيوية وطاقة مفعمة. أما "ندا"، فقد استمرأ دور "الضحية" ... فعمد إلى إنشاء موقع الكتروني له لدحض أية ادعاءات "سخيفة" بحقه[١١١]. كذا، فقد أمضى الرجل ما لا حصر له من ساعات أخذ خلالها يشنف آذان الصحافيين والأكاديميين والمحققين بأحاديث عن "مآثره الإسلاموية". ففي سلسلة من الحوارات المطولة مع قناة "الجزيرة" القطرية، زعم "ندا" أنه المفوض السياسي لجماعة "الإخوان المسلمين" أو وزير خارجيتها.

إلا أن مصير الرجلين ... "ندا"، و"همت" ألمح إلى تطور مثير: فبشكل أو آخر، كانت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أفضل ما وقع لجماعة "الإخوان المسلمين". أجل ... لقد تم اتخاذ إجراءات صارمة لفرض النظام، حيث عانى الإخوان المسلمون غير قليل. إلا أن الأمر الأكثر أهمية أن جعلت تلك الهجمات معظم الغربيين يعمدون إلى تقييم "الإسلامويين" وفقا لمعيار وحيد، هو: هل الشخص إرهابي؟ فإذا كان كذلك، فسوف يتم اللجوء إلى السلطة الرسمية بكامل نفوذها وسطوتها ... من تعذيب واضطهاد وقمع واعتقال، ... وخلافه. أما إذا لم يكن كذلك، فبها ونعمت – فيكون الشخص بلا شائبة تشوبه ... إذا، فهو لا ينتمي إلى تنظيم "القاعدة"، ولا يعمد إلى القلاقل وإثارة الغبار. وبذا، لا يقتصر الأمر على قبوله، بل يمتد إلى تقديره وإعلاء شأنه. فبعيدا عن كون هؤلاء يمثلون "معضلة مأزومة" ... فإن آراءهم المتطرفة لتعد دليل ثقة ومصداقية، إذ بمقدورهم توجيه خطابهم إلى "الشارع الإسلامي" ... وقد أضحوا يمثلون كنزا ثمينا ... لقد أضحوا "شركاء حوار".

إنه صباح باكر ... حيث انطلق "هيرفيه تيريل"[١١٢] مسرعا إلى داخل أحد المقاهي التي تزينها حليات من النحاس وخشب السنديان – على الجانب المقابل لكنيسة "مريم المجدلية" بوسط باريس ... تلك الكنيسة التي تشبه المعابد

الإغريقية. لقد كان "تيريل" فى طريقه إلى العمل، وتحديدا ... فقد كان قاصدا "وزارة الداخلية الفرنسية"، حيث يعمل مسئولا بإدارة الأديان بها ليشارك فى صوغ سياسة خاصة بمسلمى فرنسا. وحين التقيت "تيريل" أول مرة فى الرابع عشر من أيار/ مايو ٢٠٠٤ بباريس ... كانت فرنسا تحترق - إذ كانت تجمعات المسلمين وقد أضرمت فيها النيران. بيد أن الرجل لم يكن مشوشا، إذ كان موقنا تماما أن فرنسا قد اختارت الاستراتيجية الصائبة للتعاون مع جماعة "الإخوان المسلمين".

تعد فرنسا واحدة من أكبر بلدان أوروبا من حيث عدد المسلمين بها ... ذلك العدد الذى يتجاوز أربعة ملايين مسلم. هذا، وقد ضخ المهاجرون المسلمون إلى فرنسا دما شابا فى أوصال مجتمع هرم ذى هيكل ديموغرافى ينتظم غالبية من كبار السن ... كذا، فقد ساعد أولئك المهاجرون فى نسج روابط تجارية وثقافية مع العالم الإسلامى. إلا أن أغلب المهاجرين المسلمين يقطنون فى تجمعات عشوائية فقيرة كتلك التى كان يحيا بها "مراد عمرو" - الداعية الشاب الذى أوردنا ذكره فى الفصل السابق ... حيث يحيون بمعزل من المجتمع الفرنسى، وتندر فرص التحصيل التعليمى، كذا ... تعد فرص التوظف شحيحة للغاية. إن هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ قد ألقت الضوء على تلك المجتمعات التى تم تجنيد شبابها المسلم للجهاد ضد الغرب فى أفغانستان. وفى عام ٢٠٠٥، عمد العشرات من الآلاف إلى التظاهر وإضرام النيران فى السيارات ليلة تلو ليلة ... أما "هيرفيه تيريل"، أو بالأحرى "برنار غودار"، فكان واحدا من جماعة موظفين حكوميين رفيعة المستوى عهد إليها بالتوصل إلى حل لذلك المأزق العضال.

لقد قرر المسئولون الفرنسيون بالفعل، فى عام ٢٠٠٣، أن المسلمين بفرنسا

باتوا فى حاجة إلى صوت يعبر عن آمالهم ورغباتهم، فكان أن أسسوا "المجلس الفرنسى للدين الإسلامى" ... على أن يتم اختيار أعضائه بالاقتراع، إلا أن مشكلة قد واجهت أولئك المسئولين - من سيكون له حق التصويت؟ إذ لا يدرج المواطنون الفرنسيون انتماءاتهم الدينية بالوثائق الحكومية ... لذا، فلا تملك فرنسا قائمة أو حصرا بالمسلمين بأراضيها. أما الحل، فقد كان يكمن فى قيام المساجد باختيار ممثلين. وبطبيعة الحال، فسوف تحظى المساجد الكبيرة بأصوات أكثر من نظيرتها للمساجد الصغيرة ... وذلك ارتكانا إلى نظرية مفادها كون المساجد الكبيرة تمثل أعدادا أكبر من المسلمين ... تلك الصيغة التى أفادت منها مجموعة وحيدة، هى "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا"- وثيق الصلة بجماعة "الإخوان المسلمين".

إن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" هو مزيج من جماعات إسلاموية متعددة تجد جذورها فى "المركز الإسلامى" فى جنيف، والذى أسسه "سعيد رمضان". وفى عام ١٩٨٩، أضحى للاتحاد صيت وشهرة حين تم فصل طالبتين مسلمتين من المدرسة لارتدائهما الحجاب ... فما كان من الاتحاد إلا أن شرع فى تنظيم التظاهرات احتجاجا على ما حدث[١١٣]، وسرعان ما وطد بنيانه وثبت أركانه كقوة داخل عشوائيات المدن الفرنسية الكبرى. فإلى حينها، كانت المنظمات الإسلامية بفرنسا مصنفة وفقا للبلدان التى ينتمى إليها أعضاؤها. بيد أن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" قد دعا إلى صيغة جامعة شاملة - هى "الإسلام الفرنسى" ... صيغة لا تقصى أحدا، رغما عن كون "الاتحاد" لم ير أدنى غضاضة فى تمويل تلك "الصيغة" باستخدام تمويلات خارجية. هذا، وقد حصل "الاتحاد" على أموال طائلة من البلدان العربية. وإلى اليوم، ووفقا لمسئولى "الاتحاد"، فإن ربع ميزانية "الاتحاد" السنوية، والتى لا تتعدى الثلاثة ملايين يورو (بما يعادل أربعة

ملايين دولار أمريكي)، لترد من مانحين بالخارج ... وبخاصة من المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة الكويت.

إن "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" تربطه وشائج وصلات بجماعة "الإخوان المسلمين" ... وذلك وفقا لهيرفيه تيريل، معترفا ورافعا أحد حاجبيه ... ليستطرد قائلا: "إذا ما قلت إن الاتحاد شيء وجماعة الإخوان المسلمين شيء آخر ... فهذا ضرب من السذاجة. أجل ... إنهما الشيء ذاته، بيد أنهما قد ارتضيا بالقواعد الحاكمة هاهنا لرغبتهما في خوض غمار اللعبة. ولهذا السبب، يبقى إغراؤهما غير محدود لأولئك الذين لا يفقهون حقيقة الأمور".

وقد بقيت أسأل نفسي، هل ينتمي "الرجل" لأولئك الرهط؟ إذا ... فما الداعي إلى "تكييف" قوانين الاقتراع لصالح مساجد "الإخوان المسلمين" الكبيرة – تلك الممولة من قبل المملكة العربية السعودية؟! ربما تعين على وزارة الداخلية الفرنسية إرساء نظام اقتراع حريص على مخاطبة مسلمين آخرين ... مسلمين أكثر "علمانية" ممن لا يختلفون – بالضرورة – إلى المساجد يوميا.

إلا أن "تيريل" اعترض بشدة قائلا: "إن محاباة الإخوان المسلمين لهو بيت القصيد ... فالتعامل معهم لا يشكل أدنى مشكلة ... بل، على العكس – فعلى امتداد أوروبا بأسرها، فإن الجماعات الوحيدة التي تدري كيف تجد لنفسها موطئ قدم بالمجتمع هي الجماعات الإسلاموية" ... أجل، فالإخوان المسلمون وجماعتهم لا يمثلون – بحال – جميع المسلمين، إلا أنهم ذوو جاذبية لتيريل نظرا "لامتلاكهم سمات ثقافية تخولهم الحديث بيسر مع المسئولين الحكوميين" من أمثاله. وبعبارة أخرى، فإنهم يرتدون بزات غربية، وحائزين شهادات جامعية، فضلا عن قدرتهم على صوغ مطالبهم على نحو يسهل على السياسي فهمه. ولعل الأمر قد ذكرني

بقرار "أمكومليب" بالتوقف عن دعم "إبراهيم كوجا أوغلو" ... ذلك الزعيم المسلم المسن، وذلك لمصلحة "سعيد رمضان". فعوام البشر لا يرقون إلى أن يكونوا محاورين ذوى كفاءة ... كذا، فليس لديهم برنامج سياسى يمكن التباحث حوله ومناقشته ... إن العوام لطوام أينما يوجهوا لا يأتوا بخير.

كذا، فإن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" لذو جاذبية وبريق - ذلك كونه يملأ فراغا قائما فى الخدمات الاجتماعية ... فراغا لا ترغب الدولة فى التعامل بشأنه. هذا، وتمنح مساجد "الاتحاد" دورات تعليمية بعد ساعات الدوام المدرسى، فضلا عن دور حضانة للأطفال، ومجالات لأنشطة المرأة. إن إحدى مؤيدات هذا النهج هى "دنيا بوزار"١١٤، وهى عالمة اجتماع مرموقة ... هذا، وتذهب تلك العالمة الفرنسية المسلمة - فى كتاب لها صدر عام ٢٠٠١ بعنوان "إسلام الضواحى" إلى أن الجماعات - من أمثال جماعة "الإخوان المسلمين" - تعد همزة الوصل ما بين المجتمع والمهاجرين المسلمين، والوسيط فيما بين الفريقين. فخدمات تلك الجماعات - وفقا لبوزار - تساعد على اندماج المسلمين فى المجتمعات الغربية. إلا أن "بوزار" قد عدلت عن آرائها ووجهات نظرها بعد أن تابعت مجرى تطور الأحداث وسيرها على امتداد سنوات قلائل لاحقة. فبدلا من دمج المسلمين فى المجتمعات الغربية، فإن صيغة جماعة "الإخوان المسلمين" الجامعة المانعة لتنسج شرنقة حول أتباعها، ومن ثم حرمانهم التواصل مع المجتمعات المعاصرة، إلا قليلا. إذ عادة ما يتم تقزيم التعليم، فضلا عن تضاؤل فرص النجاح الوظيفى. ووفقا لبوزار: "إنها رؤية مجتمعية تصنف البشر ... فهم إما (إسلاميون) أو (غير إسلاميين). إن تلك الجماعات لترنو إلى أسلمة كل شىء". وباحتضانهم لمنظمات من أمثال "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا"، فإن الساسة الغربيين ليذهبون - بالضرورة - فى ركاب ذلك النسق، بقبولهم

الضمنى للمعتقد الإسلاموى الذاهب إلى أن "الإسلام هو الحل".

هذا، وقد شرعت "دنيا بوزار"، وغيرها من مسلمين ومسلمات، فى إدراك أن معظم المشاكل التى تواجه المسلمين ليس لها أدنى صلة بالدين – ومن ثم فمن العبث تخويل جماعة دينية – أيا ما كانت – إيجاد حلول لتلك المشاكل ... إن مشاكل المسلمين تسود فى أوساط المهاجرين الفقراء كافة: البطالة، وانخفاض مستوى جودة التعليم، ومعدلات الجريمة المرتفعة. إن المشاكل المذكورة هنا لا "دين" لها، ومن ثم فإن ربطها بالإسلام لأمر غير مقبول. أما مقولة أن "الإسلام هو الحل" ... فمقولة لها نصيب كبير من الغواية والإغراء – إلى الحد الذى شرعت معه الولايات المتحدة الأمريكية فى صوغ سياسات مماثلة وجدت أصداء لها فى ممارساتها منذ خمسة عقود خلون.

فى أواخر عام ٢٠٠٥، قررت وزارة الخارجية الأمريكية أن مسلمى أوروبا فى حاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة ودعمها ... فالكثير منهم يعيشون فى "مجتمعات موازية"[١١٥] منفصلة عن المجتمع القائم. أما التطرف والعنف، فكانا فاشيين ... فلم يكن من قبيل المصادفة – إذا – أن يكون ثلاثة من الأربعة الذين اقتحموا برجى مركز التجارة العالمى بنيويورك خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ... قد تم "ردكلتهم" فى أوروبا. كذا، فلم يكن قيام الإرهابيين "الإسلامويين" بقتل المئات فى "لندن"، و"مدريد" أمرا عرضيا. إذا، ووفقا للخارجية الأمريكية، فإن أوروبا بحاجة إلى مساعدتها فى إرساء شبكة دولية "للتباحث حول ظاهرتى التهميش والتطرف".

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية هدفا لهجمات الراديكاليين الإسلامويين، إلا أن المجتمع الأمريكى لم يولد العنف الذى نلفاه فى القارة

الأوروبية ... ولطالما تباحث الخبراء حول السبب المفضى إلى تلك الظاهرة، حيث أشار بعضهم إلى أن المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية عادة ما يكونون فى حالة توظف أو أنهم قد قدموا بهدف الدراسة. وفى المقابل، فإن المسلمين المهاجرين إلى أوروبا قد وفدوا للعمل فى مهن ترتبط بالتصنيع، حيث لم تعد تلك المهن قائمة بعد. إن أولئك المهاجرين إلى أوروبا هم من ذوى "التعليم الفنى"، إلا أنهم تنقصهم المهارات اللازمة للحصول على فرص أخرى للعمل والتوظف ... الأمر الذى يتركهم نهبا لليأس وفريسة للإحباط المتولد عن تبطلهم وفراغهم. كذا، فإن اختلاف طبيعة الخدمات الاجتماعية المقدمة فى كل من أوروبا والولايات المتحدة له ارتباط وثيق بتلك المشكلة. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن المسلمين العاطلين من العمل لا يجدون سوى مزايا محدودة تساعدهم فى التواؤم مع وضع كهذا ... لذا، فإذا أراد هؤلاء "الحياة" – يتعين عليهم العمل لساعات طوال. أما فى أوروبا، فإن العاطلين من العمل لديهم مزايا تأمينية سخية تضمن لهم الحياة، وتوفر لهم الكثير من الوقت ... ذلك الفراغ الذى يتيح لهم الانخراط فى الممارسات المتطرفة. كذا، فقد تدوولت تفسيرات أخرى للظاهرة محل البحث: منها أن العنف الإسلاموى، هو فى أغلبه ظاهرة عربية وباكستانية ... ففيما تتشكل غالبية كتلة المسلمين المهاجرين إلى أوربا من هذين الإقليمين، فإن مسلمى الولايات المتحدة يتسمون بكونهم مزيجا متنوعا تنتمى عناصره إلى فسيفساء من مواطن شتى.

إلا أن أحدا لم يتناول ما أعلنته خطة الخارجية الأمريكية: كون الولايات المتحدة بها قيادات إسلامية أفضل. وفى مؤتمر عقد يومى الخامس عشر والسادس عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ٢٠٠٥ بمقر السفارة الأمريكية بالعاصمة البلجيكية، بروكسل، – وتحت رعاية وزارة الخارجية الأمريكية، والمعهد الملكى البلجيكى

للعلاقات الدولية، وعدد من المنظمات الأهلية الأمريكية ... التقى جمع ضم ٣٢ مسلما أمريكيا يمثلون "الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية"، و٦٥ مسلما بلجيكيا بهدف الحوار ... وكان عنوان المؤتمر: "المجتمعات المسلمة ومشاركتها المجتمعية: حوار بلجيكى/ أمريكى".

ومن الوجهة التاريخية كان الأمر هزلا ... إذ كان المؤتمر أقرب إلى بائع ماء فى حارة السقائين، أو كناقل التمر إلى هجر. فالجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية قد أسست من قبل أشخاص تربطهم علاقات وثيقة بيوسف ندا وقيادات الإخوان المسلمين فى أوروبا. إذا ... فوزارة الخارجية الأمريكية قد أوفدت إسلامويين من جماعة "الإخوان المسلمين" ذوى جذور فى أوروبا لتعريف مسلمى أوروبا بكيفية التنظيم والاندماج فى المجتمعات التى يحيون بها ... بل إن الأمر الأكثر إثارة أن عددا من أولئك المسلمين الأوروبيين الذين تمت دعوتهم إلى حضور المؤتمر كانوا أنفسهم جزءا من شبكة جماعة "الإخوان المسلمين".

وكان أحد المشاركين بلجيكى يدعى "ميشيل بريفو"[١١٦] ... كان قد اعتنق الإسلام، وكان – إبان عقد المؤتمر – نائبا لرئيس "المنتدى الأوروبى الإسلامى للمنظمات الشبابية والطلابية"، وهو تنظيم ينتمى إلى جماعة "الإخوان" السعودية، ومدعوم من قبل "اتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا" ... ذلك التنظيم المظلى للإخوان المسلمين فى أوروبا. كذا، فقد كان "بريفو" نائب الأمين العام لمسجد "الصحابة" بمدينة "فرفييه" بإقليم "والونيا" البلجيكى ... وهو بؤرة لنشاط جماعة "الإخوان المسلمين" فى بروكسل، وموئل "مؤسسة الأقصى الخيرية" التى تعمل على جمع التمويلات لصالح "حركة المقاومة الإسلامية – حماس" ... تلك المؤسسة التى تم حظرها فى العديد من البلدان الأوروبية كألمانيا وهولندا لدعمها الأنشطة الإرهابية. هذا، وقد كان مؤتمر الحوار ببروكسل فرصة لنشطاء جماعة "الإخوان

المسلمين" من أمثال "ميشيل بريفو" للاجتماع بنظرائهم الأمريكيين. وفضلا عن ذلك، فقد أسهمت الخارجية الأمريكية فى استقدام المسلمين البلجيكيين إلى الولايات المتحدة لتدريبهم كأئمة ودعاة من قبل "الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية"، وللمشاركة فى برنامج تدريب صيفى نظمته الجمعية فى "شيكاغو". وبإيجاز ... كان مؤتمر بروكسل حلقة للتشبيك والتنظيم ما بين أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" ... قام بتمويلها المواطن الأمريكى - دافع الضرائب!!

هذا، وقد أعلن مسئولو الخارجية الأمريكية أن الوزارة قد دعت أفرادا مدانين بالتطرف، إلا أنهم قالوا إن سجل أعمال أولئك المدانين لم يكن ليعنيهم ... فالأمر الأهم كان وضعهم الحالى. ففى شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى، صرح السفير الأمريكى فى بروكسل، توم كريس كورولوغوس، بأن "بعض المنظمات التى شاركت فى مؤتمر بروكسل قد دينت بكونها منظمات إرهابية ... أجل، قد يكون بعض أعضاء تلكم المنظمات قد أدلوا ببيانات وصمت بكونها إرهابية الطابع، إلا أن وجهة نظرنا كانت تتمثل فى أن يرتكن انتقاؤنا إلى السياسات المعلنة والأنشطة المحددة للأفراد والمنظمات الآن بالنظر إلى اندماج المسلمين فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية التى يحيون بها. ثم فى لهجة أقرب ما تكون إلى نبرة استعراض مسرحى، خلص "كورولوغوس" إلى أن "أربعة مؤتمرات أو خمسة كذلك المؤتمر قد تفضى إلى شبكة من المسلمين المعتدلين".

إلا أن مخاطبات "كورولوغوس" الداخلية قد أسفرت عن أهداف أقل إيثارية ... ففى برقية بتاريخ الثانى عشر من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، أقرت السفارة الأمريكية فى بروكسل أن "تعاطى السفارة مع المسلمين البلجيكيين يعتبره بعض أعضاء المجتمع البلجيكى، وكذا عدد من المسلمين، تدخلا فى شئون بلجيكا

الداخلية". وتخلص البرقية إلى أن الأمر قد تم تبريره - لا على إرسائه لشبكة من المسلمين المعتدلين، وإنما بالأحرى "لتدعيم مصداقيتنا لدى كل من المسلمين والأغلبية البلجيكية وذلك بهدف خلق صورة أكثر إيجابية للولايات المتحدة فيما يخص سياساتها وقيمها ومجتمعها".

وفى عام ٢٠٠٧، حدث أمر مماثل فى ألمانيا ... فقد ساندت القنصلية الأمريكية فى ميونيخ بشدة إقامة "أكاديمية إسلامية" فى مدينة "بنتسبرغ" البافارية. وكان وراء إقامة تلك الأكاديمية جماعة تربطها علاقات وثيقة بالحزب الدينى القومى "مللى غوروش" ... ذلك الحزب الذى أوردنا ذكره فى الفصل السابق، والذى كثيرا ما يدرج فى قوائم المنظمات المتطرفة فى ألمانيا ... حيث كان ذلك سببا فى معارضة الحكومة البافارية، بقيادة حزب الاتحاد الاجتماعى المسيحى المحافظ، لإنشاء الأكاديمية. هذا، وكان الموقف معقدا - إذ بدت جماعة "بنتسبرغ" وقد سعت جاهدة لإبعاد نفسها عن شبهة التطرف، إلا أن ذلك لم يكن ليقنع المسئولين الألمان الذين آثروا التمهل إلى حين - قبل قبولهم بالنهج الوسطى الأكثر اعتدالا من قبل تلك الجماعة. لذا، فقد خلق تبنى الخارجية الأمريكية السريع للجماعة واحتضانها لها ازدواجية سياسية عجيبة: فإدارة الرئيس جورج بوش-الابن التى عنفت "أوروبا العجوز" لعجزها وتساهلها فى مجابهة قوى التطرف والإرهاب ... هى ذاتها التى وبخت حكومة أوروبية محافظة بسبب نهجها الصارم غير المهادن للإسلامويين بها.

إن نهج الخارجية الأمريكية قد شكل جانبا من تغيير أشمل فى استراتيجيتها. فوفقا لبرقية أرسلتها السفارة الأمريكية فى برلين بتاريخ السابع عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ إلى الخارجية الأمريكية، فإن "الاستراتيجية قد تمثلت فى سياسة لاستخدام الأمريكيين المسلمين للتواصل

مع غيرهم من المسلمين". وهو ما جاء متوازياً مع الجهود الأمريكية - إبان الخمسينيات - لتجنيد مسلمي ميونيخ لأغراض دعائية مماثلة. وبالرغم من أنه قد فاحت منها شبهة استغلال "الإسلام"، إلا أن السياسة تلك، في أكثر من وجه لها، لا تعد متضاربة: إذ ما الضير في إرسال مواطنين أمريكيين للإعلام بما جرى في الولايات المتحدة؟ وهنا تكمن المشكلة ... من يصلح لأداء مهمة كتلك؟ وبمثل ما جرى في الخمسينيات والستينيات، وقع اختيار الولايات المتحدة على الإخوان المسلمين.

أما المدافع الأكبر عن تلك الاستراتيجية الجديدة ... فكان عالم السياسة الأمريكي الشهير "روبرت لايكن" من مركز "نيكسون"[١١٧]. ففي مقالة بارزة له بالاشتراك مع زميله "ستيفن بروك" وردت بدورية Foreign Affairs الأمريكية في عددها صدور آذار/ مارس - نيسان/ أبريل ٢٠٠٧ - أورد الثنائي نقاطا جديدة ذات دلالة ومغزى. فعلى سبيل المثال، أشار "لايكن" و"بروك" إلى أن جماعة "الإخوان المسلمين" كانت تعامل - في غالب الأحوال - على أنها كتلة واحدة، وأن المسئولين في الغرب قد تجاهلوا التيار المعتدل في الحركة. كذا، فقد أشارا إلى أن الإرهابيين قد نظروا بازدراء إلى الإخوان المسلمين لعدم قيامهم بتبني مفهوم "الجهاد العالمي" - وبذا، وفي سياق سياسات إقليم الشرق الأوسط، فإن جماعة "الإخوان المسلمين" ليست الأكثر عنفا أو تطرفا ... كذا، فقد أشارا - وبحق - إلى ضرورة ألا تخشى الولايات المتحدة الأمريكية التعامل مع جماعة "الإخوان المسلمين" - أو غيرها من الجماعات - إذا كان ذلك يصب في مصلحتها، إذ كتبا يقولان: "على صناع القرار الأمريكي أن يعمدوا إلى تحليل كل جماعة على حدة، وانتقاء الجماعات الملائمة للتواصل معها. كذا، فعليهم في بحثهم المحموم عن "إسلاميين معتدلين" أن يدركوا أن جماعة "الإخوان المسلمين" تعد اختيارا ملائما

وفرصة سانحة".

قلة هم من يمثل "انبهار" الغرب بجماعة "الإخوان المسلمين" ونفوره منهم فى الوقت ذاته بقدر ما يمثله "إبراهيم الزيات" ... الذى آلت إليه مقاليد التجمع الإسلامى بألمانيا فى عام ٢٠٠٢ (وكان عمره حينذاك ثلاثة وثلاثين ربيعا) ... حين أجبر "غالب همت" على ترك المنصب، ليصبح بذلك رابع من يتولونه - بعد سعيد رمضان وفضل يزدانى وغالب همت. هذا، ويمثل الزيات الجيل الجديد ... ذلك الجيل الذى هو - بشكل أو بآخر - حصاد سنوات طويلة من جهود الإسلامويين لإيجاد موطئ قدم لهم فى أوروبا، ومن ثم إرساء مؤسسات دائمة هناك.

وقد ولد "إبراهيم فاروق محمد الزيات" فى عام ١٩٦٨ بألمانيا لأب مصرى يعمل إماما لمسجد "ماربورغ" وأم ألمانية اعتنقت الإسلام. هذا، وقد درس "الزيات" الاقتصاد والقانون فى جامعات "ماربورغ"، و"كولونيا"، و"دارمشتاد" بألمانيا، وحصل على درجة الماجستير فى الاقتصاد عام ١٩٩٥ بأطروحة تناولت "رؤية تقويمية حول الأنظمة الاقتصادية الإسلامية"، إلى جانب أطروحته للدكتوراه حول "الزكاة كبديل للتأمين الاجتماعى بالمجتمع الغربى". هذا، ويدرك الزيات جيدا كيفية صنع القرار السياسى فى ألمانيا ... التفاعل ما بين مستجمعات الأفكار والكنائس والمؤسسات السياسية حيث يلتقى صناع الرأى للتباحث حول الأفكار التى تتم غربلتها بواسطة الأحزاب السياسية للوصول إلى إجماع حول السياسة المزمع تنفيذها. ولا يعنى ذلك ضربا من نشاط أو تنظيم قاعدى شعبى، بل هو نظام لترسيخ أقدام الصفوة وتقوية عضدها ... تلك الصفوة التى يعوّل عليها لاقتلاع الأفكار الراديكالية واجتثاث شأفتها والوصول إلى حلول ذات معنى. وكمنسق وحاشد من الطراز الأول، يدرك الزيات ذلك الأمر جيدا. وفى بعض الأحايين يبدو الزيات وكأنه لا يفعل شيئا سوى الانتقال من مؤتمر إلى آخر ... فمن أكاديمية

سياسية تابعة لهذه الكنيسة البروتستانتية أو تلك، إلى طاولة مستديرة لإحدى الكنائس الكاثوليكية، ومن ندوة للحزب الاشتراكى الديمقراطى حول الحوار بين الحضارات إلى لجنة فرعية للبرلمان الأوروبى بشأن الأقليات ... وهكذا دواليك ... هو دائم الحضور إذ يترك انطباعا قويا ومؤثرا - مرتديا بزة زرقاء وقميصاً أبيض تزينه رابطة عنق مزركشة - رجل أقرب ما يكون إلى مدير شاب بأحد البنوك الاستثمارية ... أو كما وصفه "هارتفيغ مولر"، من المكتب الاتحادى لحماية الدستور، بأنه أقرب إلى "دبلوماسى أوروبى" من كونه "عنكبوتا بشبكة التنظيمات الإسلاموية".

بيد أن ما يجعل "الزيات" نسيجا وحده بالمقارنة بمجايليه من ذوى الطموح السياسى ... هو انخراطه فى النسق الإسلاموى. فكما أسلفنا، استقر والده المصرى فى ألمانيا إماما لمسجد "ماربورغ"، ومسئولا عن شئون المسلمين بها. هذا، ولم يتخلف الابن عن الركب، إذ كان إما مؤسسا أو ضالعا فى تأسيس جميع المؤسسات المنشأة حديثا ذات الصلة بجماعة "الإخوان المسلمين" فى أوروبا ... كمؤسسة الوقف الأوروبى (عضو مجلس إدارة له حق التحكيم)، واتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا (عضو مجلس إدارة)، واتحاد الطلاب المسلمين (رئيس سابق)، وجمعية دعم المساجد وبنائها فى أوروبا (محكم)، والندوة العالمية للشباب الإسلامى (الممثل الأوروبى)، ومعهد التعليم الإسلامى (عضو)، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين (المدير المساعد)، والمنتدى الأوروبى الإسلامى للمنظمات الشبابية والطلابية (عضو مجلس إدارة).

وكان ذلك - فقط - نشاطه فى المجال العام ... فقد اكتسب ثروته أيضاً من خلال الإسلام، فهو رئيس مجلس إدارة شركة SLM للتجارة والاستثمار العقارى - وهى شركة ذات مسئولية محدودة، وهى شركة لشراء العقارات وبيعها نيابة عن

المساجد. وكان أحد أكبر عملائه جماعة (مللى غوروش) التركية الإسلاموية – والتى فاقت الإخوان المسلمين من حيث النفوذ فى ألمانيا نظرا للعدد الكبير من الأتراك المقيمين على أراضيها ... بيد أن "الزيات" قد أسهم فى تجسير تلك الهوة من خلال علاقاته التجارية والشخصية. هذا، وقد أنشأ "الزيات" شركته تلك فى عام ١٩٩٧، ولما يزل فى التاسعة والعشرين من عمره، بالتعاون مع إسلاموى آخر يدعى "أوغوز أوتشونجو" ... وهو تركى يشغل حاليا منصب السكرتير العام لمللى غوروش. و"الزيات" متزوج من طبيبة تركية هى الدكتورة "صبيحة أربكان"، وهى عنصر بارز فى "مركز دراسات المرأة المسلمة" التابع للمعهد الأوروبى للعلوم الإنسانية – وهو معهد فرنسى لإعداد الأئمة الأوروبيين. و"صبيحة أربكان" هى أخت "محمد صبرى أربكان" – السكرتير العام السابق لمللى غوروش، وابن شقيق "نجم الدين أربكان" مؤسس الحركة. أما شقيقة "الزيات" فمتزوجة من "عبد الرحمن كمال الهلباوى" – وهو نجل الدكتور "كمال الهلباوى" المتحدث السابق باسم التنظيم الدولى لجماعة الإخوان المسلمين فى أوروبا. أما ارتباطات "الزيات" بالإسلاموية العالمية فعميقة للغاية إلى الحد الذى سلّط عليه أضواء كثيرة فى كبريات وسائط الإعلام الألمانى. ففى كتاب "الحرب فى مدننا" Der Krieg in unsern Stadten، أورد مؤلفه الصحافى الألمانى "أودو كونستانتين أولفكوته" وصفا للزيات بأنه "عنكبوت فى وسط شبكة من التنظيمات الإسلاموية الإرهابية"، وهو الوصف الذى ورد على لسان "هارتفيغ مولر" كما أسلفنا. والكتاب غاص بأخطاء جسيمة وتوكيدات صارخة حدت بمجموعة محامىّ "الزيات" إلى الضغط على دار النشر لحذف بعض العبارات. إلا أن مجمل رؤية الكتاب قد أصابت "كبد الحقيقة" ... "الزيات" هو أحد أكثر الإسلامويين نفوذا فى أوروبا.

ويبقى السؤال: أيمكننا أن نطلق على "إبراهيم الزيات" وأمثاله – من نشطاء

"الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية" فى شيكاغو إلى أعضاء "اتحاد المنظمات الإسلامية" فى فرنسا -- أنهم أعضاء بجماعة "الإخوان المسلمين"؟ بل هل يكون من الإنصاف أن نطلق عليهم تلك الصفة - فى حين أن غالبيتهم قد ولدوا بالغرب، بل ربما لا يتحدثون العربية أو الأردية، فضلا عن كونهم يلتزمون بالأعراف والقوانين المحلية؟ ... فى حالة "إبراهيم الزيات"، فإن الحكومة المصرية لتزعم أنه عضو بجماعة "الإخوان المسلمين"، وما يتضمنه ذلك من أن الجماعة ما يزال لديها شبكة من الأفراد الذين يأتمرون بأوامر "مهدى عاكف" فى القاهرة ويدعمون الجماعة فى مصر. هذا، وقد قام الرئيس المصرى الأسبق، حسنى مبارك، بإحالة "الزيات" مع أربعين من قيادات الإخوان المسلمين فى مصر إلى المحكمة العسكرية الاستثنائية فى كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، حيث حكم على "الزيات" غيابيا فى نيسان/ أبريل ٢٠٠٨ بالسجن لمدة عشر سنوات ... إلا أن السجل المصرى لحقوق الإنسان لغاص بالتجاوزات والانتهاكات، وخاصة فيما يتعلق بتعذيب "الإخوان المسلمين"، بما يجعل من الصعوبة بمكان الوثوق فى ما يدلى به المسئولون الحكوميون فى هذا الصدد. بل الأدهى من ذلك أن زعم موقع "الإخوان المسلمين" الرسمى على الانترنت Ikhwanweb أن "الزيات" عضو بالجماعة ... إلا أن الموقع قد قام فى العشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٧ بنشر تكذيب من "الزيات" الذى أنكر أية صلة تربطه بالجماعة.

بيد أن السؤال غير ذى موضوع بدرجة أو بأخرى ... إذ ينشط الإخوان المسلمون، اليوم، وفق مسارين ... أحدهما محدود كتنظيم سياسى مصرى، والآخر بصيغة تتلاءم كثيرا والحالة الغربية فى القرن الحادى والعشرين - كمحيط أيديولوجى ينتظم أعمال "يوسف القرضاوى" و"سيد قطب" و"سعيد رمضان" و"أحمد فون دنفر"، بل يمكن وصفه على نحو أوسع ليشمل جميع الحركات المماثلة

على امتداد المعمورة إلا قليلا، بما فى ذلك الجماعة الإسلامية بباكستان وملى غوروش التركية. لذا، ووفق ما سبق، فإنه يصعب أن يذهب المرء إلى اعتبار "إبراهيم الزيات"، بما له من ارتباطات بكل تلك الجماعات، مغردا خارج السرب الإخوانى. وبالرغم من محاولاته لكى يبعد عن نفسه أى ارتباط بجماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن معركته قد منيت بالخسارة ... ففى عام ٢٠٠٥، عمد "الزيات" إلى مقاضاة إحدى البرلمانيات الألمانيات لمنعها من استخدام تلك الصفة حين الإشارة إليه، إلا أن المحكمة قد أيدت حق تلك البرلمانية فى إبداء رأيها القائل "بكونه أحد أذرع الجماعة".

أما فى محاوراتى مع "الزيات"، فإننى أنحو إلى تجنب نعته بتلك الصفة. فعلى مدار أعوام، اقتربت من الرجل فأضحيت أعرفه جيدا، إذ حاورته مرتين وجمعتنا مؤتمرات عديدة من بينها سلسلة من جلسات نقاشية مغلقة رعتها الكنيسة الكاثوليكية الألمانية بهدف إزالة الحدود ما بين الإسلامويين من جهة، وجهاز الأمن فى ألمانيا من جهة أخرى. وفى إحدى تلكم الجلسات، رأيت "الزيات" يدافع باستماتة عن جماعة "الإخوان المسلمين" كتنظيم إصلاحى تقدمى شديد الأهمية – وهى حقيقة من الصعب إنكارها فى واقع الحياة السياسية المصرية. بيد أننى قد أدركت أيضا السبب وراء رفضه لأن ينسب إليه الانتماء إلى "الجماعة". فالزيات قد ولد فى ألمانيا حيث يختلف أبناؤه إلى مدارس "مونتيسورى" العالمية، فضلا عن اتسامه بروح دعابة، وإن كانت لاذعة بعض الشىء. إن الرجل ليرفض أن يوصم بكونه دمية فى يد "مهدى عاكف" – مرشد الإخوان – يحركها كيفما شاء، أو بكونه أداة فى أيدى "عواجيز" الجماعة بالقاهرة.

إن اللقاء الأخير الذى جمعنى بالزيات قد جرت وقائعه بمكتبه بكولونيا. فبعد توليه رئاسة التجمع الإسلامى بألمانيا، عمد "الزيات" إلى نقل أنشطة التجمع

وعملياته من ميونيخ إلى كولونيا، بالرغم من أن التجمع كان ما يزال مقره كائنا بمسجد ميونيخ ... وهو ما جاء ليعكس تاريخاً للتنظيم من تحكم الأقوياء. فحين كان "غالب همت" على رأس مسجد ميونيخ، كان يقيم فى سويسرا، وحين أضحى "الزيات" رئيسا له، كان يديره من كولونيا ... إذا فقد ظل مسجد ميونيخ أداة، بل سلاحا ينتضى فى صراعات باتت تتسع دوائرها.

إن مقر "الزيات" ومكتبه بشارع "أوستر آتر" بكولونيا هو مقر عديد من منظمات إسلاموية التوجه – من بينها "جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين"، و"اتحاد الطلاب المسلمين"، ومكتبة، ودار حضانة خاصة بالتجمع الإسلامى بألمانيا، ومكاتب "المجلس الإسلامى بألمانيا" ... والمجلس هو تنظيم مظلى ينتظم عددا من المنظمات الإسلامية أشهرها "ملى غوروش". لقد قصدت إلى مقر "الزيات" باكرا، حيث لبثت فى المكتبة بانتظار قدومه، حيث قادنى إلى المكتبة موظف حيانى بنظرة ملؤها الارتياب مشيرا لى بيده إلى أحد المقاعد للجلوس ... إلا أن أساريره قد انفرجت حين سألته عن إمكانية أن يرشح لى كتابا يتناول مقدمة موجزة عن الإسلام، فما كان منه إلا أن دفع بين يدىّ بنسخة من كتاب "السلوكيات الإسلامية" لأحمد فون دنفر ... والكتاب عبارة عن سلسلة من المقالات بقلم زمرة من أشهر المؤلفين الإسلاميين، من بينهم "خورشيد أحمد"[١١٨] – الذى يعد معلما لفون دنفر.

وما هى إلا دقائق حتى أهُل "الزيات" ... أكثر امتلاء وأغزر شيبة عما كان عليه فى المرة الأخيرة التى جمعتنى به. ثم غادرنا المقر لنركب عربته الـ BMWمن الفئة الثالثة. وحين أضحينا فى غمار زحام الطريق، تذكرت السبب الذى دفعنى للإعجاب به.

"يقول الكثيرون إن إين جونسون هو عميل لجهاز الاستخبارات المركزية، ذلك كونه لا يكتب إلا فيما ندر".

فجاءت إجابتي: "هذا ما يقوله رئيسي أيضا".

"إذا – عليك أن تكتب أكثر وأكثر ... ألا يقولون إن الكسل خطيئة".

وأثناء اختراقنا للزحام الجاثم، صرنا نتبادل طرفة هنا وملحة هناك في جو من الدعابة المازحة ... في طريقنا لتناول الغداء.

وما أن وصلنا وجهتنا حتى ترجلنا قاصدين ذلك المطعم التركي. وسريعا أخذ "الزيات" بزمام الأمر حيث أمر بسلطانية حساء وصحن كبير حوى شرائح لحم علتها قطع من الخبز المحمص، فيما غرق اللحم في صوص الزبادي بالثوم ... ليباغتني بإخراج حافظة نقوده بسرعة ليؤدي قيمة الغداء قبل أن تبدر عني التفاتة أو ردة فعل ... قائلا: "لاتنس أنك الآن في حضرة عربي ... قضي الأمر!!"

كان "الزيات" قد مر بأوقات عصيبة ... إذ كان المسئولون الألمان يريدون حوارا مع "المسلمين" – وهو مصطلح غريب بعض الشيء ... فهو يجمع صنوفا مختلفة تماما ... فمن أتراك الجيل الأول الذين لا يتحدثون الألمانية إلا لماما إلى مهاجري "البوسنة" وألمان "الداخل" المتحولين إلى اعتناق الإسلام. إن أولئك المسئولين يدركون أن "الزيات" وحلفاءه في "مللي غوروش" يمثلون طوائف عدة من المسلمين، وبخاصة الشبيبة الحائرة الأكثر اضطرابا ... أولئك الذين يمثلون التهديد الأمني الأكبر. بيد أن "الزيات" وشبكة علاقاته المترامية قد صارا معلومين في ألمانيا، حيث لم يكن "الزيات" – دائما – موضع ترحيب. فالمركز الاتحادي للتعليم السياسي – على سبيل المثال – قد أدرجه متحدثا ومحاورا

معتمدا عن شئون المسلمين، فكان للأمر ثقل ملموس - ذلك أن المركز كان قد أنشئ فى أعقاب نهاية الحرب الكونية الثانية للترويج للتعليم الديمقراطى فى المجتمع الألمانى الغربى، حيث غالبا ما يتم النظر إلى توصياته كونها آمنة لا تنطوى على أية أخطار. بيد أنه حين أشار المعلقون إلى ارتباطات "الزيات" بالعوالم الأيديولوجية لحركة "الإخوان المسلمين"، سرعان ما عمد المركز إلى استبعاد اسمه من موقعه على الانترنت. إلا أن "الزيات" بدا وقد أحرز إنجازا حين شارك فى المؤتمر الإسلامى الذى نظمته الحكومة الألمانية ... وكان جهدا حكوميا استهدف إقامة حوار رسمى مع المجتمع الإسلامى فى ألمانيا. إلا أنه حين أعلن عن وجود "الزيات" بالمؤتمر، كان اللجوء إلى استبعاده على الفور. وفى عام ٢٠٠٩، داهمت الشرطة الألمانية عدة مساجد وزوايا للصلاة لها صلات بجماعة "الإخوان المسلمين"، حيث أوردت صحيفة Suddeutsche Zeitung فى عددها الصادر بتاريخ الحادى عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٩ أن "الزيات" هو على رأس التنظيم فى ألمانيا، بما كان من شأنه مزيد من تلطيخ صورته وتشويه سمعته.

كل هذا قد أفضى إلى إقصاء "إبراهيم الزيات" عن الصفوف الأولى لشركاء الحوار، بيد أنه قد استأنف جعل شبكة علاقاته نشيطة فاعلة بما أتاح لآخرين الانضمام إليها. إن هذا الدور - على الأرجح - لم يكن هو عين ما يبغيه الرجل، إلا أنه دور قد أجاده هو و"الإخوان المسلمون" على امتداد أعوام طويلة. فقبل أعوام قلائل، أرسل "الزيات" أموالا إلى وكالة "طيبة" الدولية للغوث بفرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهى منظمة بوسنية ترتبط بعلاقات مع تلك الجماعات الأصولية. وبالفعل، فقد اعترف "الزيات" بقيامه بتحويل الأموال إليها، بيد أنه قال إنه إنما فعل ذلك نيابة عن ممولين سعوديين. وحين سألته عن السبب وراء تورطه مع السعوديين

... كان جوابه صادما: "لتجنب وقوع الأسوأ" ... وهو تبرير نمطى يتصل من المسئولية ... تبرير يرد كثيرا على لسان أناس قد لبثوا كثيرا فى معية جماعات سيئة السمعة تطالها سوء الأحدوثة.

إن رموز جماعة "الإخوان المسلمين" دائما ما يقولون إنهم لا تربطهم أية علاقة بالإرهابيين، إلا أنهم يعترفون بوجود علاقات ما حين يتم سؤالهم عن ارتباطات بعينها ... إن تلك الرموز تمتنع عن إعطاء بيانات واضحة، كذا فإنها لا تعمد إلى إحداث قطيعة بائنة بالماضى. إن التجمع الإسلامى بألمانيا لم يعترف بماضيه ألبتة إذ لم يعر تاريخه أدنى اهتمام. ففى اجتماعه السنوى الذى أقيم فى أواخر عام ٢٠٠٨، احتفل التجمع بالذكرى الخمسين لإنشائه، بالرغم من أنه لم يكن قد أنشئ بعد كلجنة بناء المسجد حتى ستينيات القرن العشرين ... حيث زعم التجمع – بموقعه على الانترنت – أنه قد أنشئ بواسطة الجنود السابقين (الذين اجتمعوا للمرة الأولى عام ١٩٥٨، ومن ثم ذلك الاحتفال باليوبيل الذهبى)، إلا أنه لم يذكر كونه قد عمد إلى استبعاد أولئك الجنود وإقصائهم. وكان التجمع قد شرع فى منح جائزة باسم "سعيد رمضان" لأولئك الذين خدموا "القضية"، إلا أنه لم يذكر أن "رمضان" نفسه كان قد أقصى أيضا. هذا، فضلا عن إشارة التجمع إلى أن رهطا من الراديكاليين قد كانت لهم بعض صلات بمساجده، وأن هذا لا يمثل سوى استثناء من القاعدة ... إن الماضى دائما ما تتم إعادة كتابته ... أو ضرب الصفح عن وقائعه.

إلا أن ذلك لم يمنع أن يتمتع "الزيات" بشبكة صداقات واسعة ... إذ انطلت على البعض مزاعم جماعة "الإخوان المسلمين" الذاهبة إلى أن صرامتها المتجلمدة إنما تعبر عن الأصالة. ولعل أفضل مثال على ذلك هو "فيرنر شيفاور"، وهو أنثروبولوجى ألمانى مرموق كتب كثيرا عن الإسلامويين فى تركيا وألمانيا. هذا، ويعد أسلوب

"شيفاور" حداثيا للغاية ... فالمبحوثون يتم إعطاؤهم أسماء مستعارة، كذا، فإنه يتم التعامل مع إجاباتهم على نحو ظاهرى (أى كما أدلوا بها). ولا يقوم "شيفاور" بأى جهد بحثى عميق، بل يقتصر على مضاهاة الروايات بعضها ببعض لإيجاد رابط منطقى ينتظمها ... كذا، فإن مجهوده البحثى ينبع من شعور بالذنب من أن الأجانب هم ضحية المجتمع الألمانى القمعى.

وقد أخبرنى "إبراهيم الزيات" أن تكوين صداقات لهو أمر مهم، إلا أنه قد رغب فى إعلامى بأمر أكثر أهمية. فبعد أن فرغنا من غدائنا، والشاى الذى أعقبه ... كان "الزيات" قد تحدث عن جميع "الجماعات" التى انتمى إليها، وكذا كل المصاعب التى واجهها ... وقد انطوى الأمر على درس هام ود الرجل أن يخبرنى به، حيث ملت إلى الأمام مصغيا إليه ... كان الأمر يتعلق بجماعة قد رغبت فى بناء مسجد فى "برلين" ... إنها جمعية "إنسان"، وهى جمعية مسجلة ومشهرة وفقا للقانون الألمانى. وكانت "إنسان" قد أنشئت بواسطة عدد من المسلمين فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، وكانت بحاجة إلى بعض الأموال. هذا وقد عمد "الزيات" إلى مخاطبة "مؤسسة الوقف الأوروبى" لمنح الجمعية عدة ملايين من "اليورو" لشراء قطعة أرض فى برلين لإنشاء المسجد عليها. وحين ذاع خبر شراء الأرض، ثارت موجة من الغضب بشأن ضلوع "الزيات" فى الصفقة، فما كان من البلدية إلا أن امتنعت عن إعطاء رخصة البناء للجمعية ... وهنا سألت "الزيات" ما إذا كان الأمر يتعلق باشتراك جماعته فى الهجمات بوسيلة أو أخرى.

"لا ... إذ إنه ما إن يذاع خبر عن بناء مسجد، حتى يصطف الجميع لمعارضة الأمر ... إن المساجد يجب أن تشيد فى الخفاء".

"من المؤكد أن ذلك ينافى الحقيقة ... لقد زرت مدنا ألمانية عديدة، حيث شهدت

مسلميها يتواصلون مع المجتمعات التى يحيون بها. كذا، فقد حظوا بدعم واسع لمشاريعهم ... أجل، إن الأمور لا تجرى دوما على هذا النحو، فما تزال العنصرية تمثل مأزقا كبيرا ... إلا أننى أرى أنه فى الأجل الطويل، فإن الشفافية هى الرهان الرابح. أليس مشروع بناء ذلك المسجد فى برلين بواسطة جماعة صغيرة من النشطاء المولين من قبل الإخوان المسلمين هو لب المشكلة ؟!"

وهنا جاء رد "الزيات" صالحا لكل زمان - لا يبليه طول العهد ولا اختلاف الأوان ... رد كان يمكن أن يرد على لسان "غرهارد فون منده" أو "روبرت دريهر" أو "سعيد رمضان" ... "ليس الأمر على تلك الشاكلة ... إن السرية لهى مربط الفرس هاهنا ... إذ ما دام الأمر سريا، فبمقدورك بناء أى مسجد تشاء، بغض الطرف عمن وراء تمويله ... إذا، ما عليك إلا أن تبقى الأمر فى طى الكتمان".